شيءٌ ما يُشْبِهُ الحُبّ

حبيب عبد الرب سروري
http://abdulrab.free.fr/texts.htm

نصوص شِعْريّة

الفهرس

أ) مختارات شعريّة (١٩٧٠-١٩٩٥)

١) لأُمِّي وهيَ تمحُو أُمِّيَتَها
٢) محاكَمة في الزمن القادم
٣) حُبَّــان
٤) البَحَّـــار
٥) إِبريقُ الدمـع
٦) الوشـمُ والكلمـات
٧) سِيْـرةٌ صغيرَة
٨) قافِلَـةُ المنكوبيـن

ب) نصوص شعريّة-قصصيّة

٩) القُبْلةُ الفَـاجِرة
١٠) شيءٌ ما يُشْبِهُ الحُبّ
١١) لا صوتَ يعلو فوقَ صوتِ النحيب

لأحمد جابر عفيف،

أستاذًا، مُنَوِّرًا، صدِيقاً، و... إنساناً!

– أعرفُ شيئاً واحدا: إني أهتمُّ بكلّ الوردِ المتناثرة، لكن الحبَّ وخفقةَ القلب للوردَة البرّية فقط. فتعالي لتكتشفي الأمكنة ومعها تكتشفين كينونتكِ الضائعة. أتُحبِّين السباحةَ في مياهِ طاليس؟
– لا أعرف العوم!
– فلتغرقي إذن! ومن الغرقِ ستُعلِّمين أسماكَ القرشِ فنّ السباحة.

«ثُنائية العشق والهزيمة»، أروى عبده عثمان

أ) مختارات شعريّة
(١٩٧٠–١٩٩٥)

لأُمِّي وهيَ تمحُو أُمِّيَتَها

(لمن ترعرعوا وإيّاي في ظِلِّها الحنون: أروى، إلطاف، رضوان، سهام، فتحية، محمد، هدى)

-١-

الليْلُ في أسفَارِه الأخيرَة
مُعربِدُ الْخُطَى، يَنَامْ.
والأنْجُمُ المنيرَة
تَسيرُ نَحوَ مَضْجَعِ الغَرامْ
في شُرْفَةِ المزَارعِ التي تثاءبتْ
[الكادحونَ النائمونَ يحلمونَ بازْدهارِهَا
تَشعُّ من أَحلامِهِمْ روائحُ الليمونِ والحصَادْ
وزَغْرداتُ الفُلِّ والنسْرين]
الْكُلُّ نائمٌ...
وأَنتِ تَقرئِينْ!

-٢-

شَهيَّةٌ عَيناك عِنْدما
تُمَزِّقُ الْقِناعْ
فِي هامة الحروف...
تعضُّ مِنْ أكْتافِها
تَمتَصُّ ما تشاء.
سُهَادُهَا ـ لو تعرفين ـ
صَلاتُنا بمعبدِ الرجاء،
قُربانُنَا للفجر، للضياء.
بَهِيَّةٌ أَصَابعُ النّهارِ في يَدَيْكْ
تُصادمُ الْحروفْ
فيَطْلَعُ الشررْ
قَنْديلُ قَلْبٍ طَالما انتَظَرْ

فِي ظُلمَةِ الطَّرِيقْ
أن يبدأَ السَّفَرْ

ـ٣ـ

غَدًا، عزيزتي
بيَارِقُ الصباحِ عندمَا تَرِفْ
سَتَنْثَنِي قَسَاوَةُ الأَلِفْ
بِرِقَّة، وخِفَّة
ويَطْلَعُ الثَمَرْ
فتَرقُصُ النِّقَاطُ في أَزِقَّةِ الْحُروفِ
ويَرْقُصُ الشَّجَرْ
تَنَاغُمًا ومَصرَعَ الذي أَمَرْ
آباءَنا بِجَهلِ كلِّ شيءْ
لمَّا يرى عينَ القمرْ
والزهْرَ، والآمالَ والقلاعْ
فَطيرَةً دافئَةً
يَمْضَغُهَا الجِيَاعْ

ـ٤ـ

غدًا، حبيبتي
إطْلالةُ الصباحِ عندما تَحِينْ
بِلَذَّة الْعناقِ سَوْفَ تَقْرئِينْ
عِبَارَةً مُضيئَةً فِي جَبْهَةِ الدفاتر
في بُؤْرَة التكوينِ والسنين:
«سَيَصْنَعُ الإنسانُ كُلَّ شيءْ!»
نَعَمْ!
سيَصْنَعُ الإنسَانُ كُلَّ شيءْ:
الحُبَّ والأطْفَالَ والبَشَائرْ
آفَاقَنَا ورَوْعَةَ المَصَائرْ
آمَالَنا، ولَحنَهَا الرَّخيمْ
دُرُوبَنَا، وحُلْمَنا الْعَظيمْ

إبريل ١٩٧٤

محاكَمة في الزمن القادم

(للصديق العزيز شوقي شفيق)

ـ١ـ

وأنْتَ،
تَقَدَّمْ!
نُريدُ محَاكمةً عادلة!

ـ٢ـ

تَوَغَّلَ في ساعدَيْكَ الْوَهَنْ!
تَمطَّى على كتفَيْكَ الزمَانُ كَثيرًا
تَقَزَّمْتَ، ذُلَّتْ مَهَابَتُكَ السَّابقَة
ولمَّا تَعُدْ، سوى دمْيةٍ عاطلة
تُكَشِّرُ، ولَّى زَمَانُ الصراخ
تَدَاعَتْ كُهُوفُ التخوّفِ والدَّجلِ،
أَهْلاً!
فنحنُ نُطِلُّ من الوردِ
منْ مُقْلَة الذّاكرةْ!
نَنُطُّ على ذبذباتِ الأثيرْ
نجيءُ من البابِ والنافذةْ
معَ الضوءِ والماءِ،
من بَينِ أَجْفَانكَ الذَّابلةْ
نريدُ المحاكمة العادلة

ـ ٣ ـ

تَرَفَّقْ بأنفاسكَ الراجفة!
فَلسْنَا نريدُ سوى العدلِ
هذي شَريعَتُنَا.
مابكَ اليومَ يحفرُ في نَاظرَيْكَ الشحوبُ
قبورًا تئنُّ بها دَهْشَةٌ داكنَة؟

مَا بكَ اليوم تصرَخُ حينَ
نَدُقُّ نَوَافذَ لَحظَاتِكَ الفَانيَة؟
لحظةً، لحظةً
نُفَتِّشُ في أُنفِ ماضِيكَ
في بَطْنه...
نُفتِّشُ أَمْعَاءَهُ المتْربة

ـ ٤ ـ

أَأَنْتَ الذي كُنتَ فَارسَ عَصْرِكْ؟
تصيحُ فَتفقأَ عينَ القمرْ!
وتركل أقْدامَه بعصاكَ الْغليظه
تمسَّكْ بِهَا!
ما بِهَا اليوم كالفأرِ؟
خَارَتْ تماثِيلُكَ الجَامحه!
يمزِّقُكَ اليوم صوتُ الجديدْ
صوتُ الذينَ يَجِيئونَ مِنْ
زَمنِ الزاحفينَ الى الشمسْ
يُجيدونَ قَطْفَ العناقيدِ والمستحيل
وغمرَ الشوارعِ بالخبزِ والأغنياتِ الجميلة.

ـ ٥ ـ

مُحَاميكَ مَنْ؟
عجوزُالتَّسَتُّرِ والإخْتبَاء!
من اليومَ يَرْفعُ عنكَ العقَابَ؟
وهذا الحسَابَ؟
لقد كنْتَ تَهْوَى نضالَ الخَفافِيش،
كنْتَ تُجيدُ ابتلاعَ الشعَارات لا حَفْرَهَا.
رَسَمْتَ طُقوسَ التّقدُّمِ، حتميَّةَ الإنتصارْ
تَشَدَّقْتَ بالرَّفْضِ والإحمرارْ
شَرَحْتَ صُنُوفَ التخَلّف،
أسبَابَهُ، كيفَ يَجثو، وكَيْفَ يمُوتُ...
وزوجُكَ لا تَعْرفُ «الياءَ» والنقطتين

بناتُكَ مَا شَاهَدوا أينَ ركنُ المدينة
همُ اليوم قَاضيْكَ، مَهْلاً!
فَهَذِي دَفَاترُكَ القاحلة
وهذا الصديدُ تَفَجَّرَ منْ بينِ عَيْنَيكْ...
يديكَ مضرَّجةٌ بالدِّماء!
يديكَ مضرَّجةٌ بالدماء!
فهيَّا...
سريعًا خُذُوهُ إلى المزبله
سريعًا خُذُوهُ إلى المزْبلَه

ـ ٦ ـ

وأنتَ،
تَقَدَّمْ!
نريدُ محاكمةً عادلة!

سبتمبر ١٩٧٥

حُبَّـــان

(للصديق العزيز أحمد فرج باشميلة)

ـ١ـ

الكُلُّ يُردِّدُ عشْقَك
وأردِّدُ عِشْقَكِ وَحْدِي!

ـ٢ـ

وطَنَاً أَسْموك:
حُدُودًا رُسِمَتْ يَومًا ما
أَمتَارًا مُكَعَّبَةً منَ الضوْءِ ـ الأَرْضِ ـ الرّيحِ ـ المَاءْ.

ـ٣ـ

أَراك أنا شَيْئًا آخرْ:
فَتَاةً مُكَمَّمَةً بشيَاذِرَ من إسْفِلْتْ،
بهمومٍ لا تُحصى.
يَنهَكُهَا رَبُّ الدَّار
يَتمطَّاهَا ليلَ نهار.
تَحلْمُ أن يَتَوارى الشِّبْحُ الجاثم
أنْ تَسْتَلْقي عَاريةً فَوقَ الموجِ الناعم.

ـ٤ـ

أُتَمْتِمُ سِرّاً أَمَامك
أُسائلُ صَمْتًا أَزَليّاً يَبكي في عَينَيْك:
« مَا ذَنْبُكِ إِنْ كَانَ الحَاكمُ حَجَّاجًا؟
مَا ذَنْبك إِنْ كَانَ المرشدُ أُمِّيًّا؟
مَا ذَنْبكِ إِنْ كَانَ الْوطَنُ جَحيم؟ »

ـ ٥ ـ

أَهواك أنَا وجهًا آخر
حُلْمًا يَتنَفَّسُ دِفْءَ البَحرِ

ينمو كالدهرْ
يسْمُو بينَ أَعَاليكِ العطرية
يَتَوغَّلُ غَاباتَ الأَزمان
يرفضُ قانونَ النسيان
يتكىءُ على ذاكرَةٍ لا تَخْسفْ
بِحبِّ الْجمالِ يَعيشُ،
لِحبِّ الجمالِ يَعيشُ،
لَهُ «الْلَوْعَةُ» أَحلى الكلمات
قرآنٌ وصلاة...
ملكُوتُ الفنِّ لَهُ محرابْ،
والعَقْلُ لَهُ بابْ،
نُورٌ ويقينْ.
الشِّعْرُ لَهُ لُغَةٌ
والعشْقُ لَهُ دِينْ.

ـ٦ـ

مازلْتُ أَظُنُّ أَنَّ للإقْترابِ منْكِ
يَنْبَغِي أَنْ نَنْأَى بَعيدًا، بعيدًا
مَازِلْتُ أَظُنُّ أَنَّ مَهْرَ غَرَامِكِ: مَلْيُونُ فِيلٍ مُكَلَّلٍ بالذَّهبْ،
مَلْيونُ هَوْدَجٍ عَامرٍ بالجواهرِ،
مَليونُ كَلمَةٍ تَسجُدُ أَمَامهَا آلهةُ الفن،
مليونُ فكْرَةٍ تُغذِّي نَظَرَ المعرفة...
ما زلتُ أَظُنُّ أَنَّ قُرْبَانَ رِضَاكِ: رِحْلَةٌ إِلى الْمالانهاية،
لَوْعَةٌ دَائمه.

ـ٧ـ

مَا زِلْتُ أُفَتِّشُ عَنْ زَمَنٍ بِلا أَقْنعَه
تَمْشي فيه الأَشْيَاءُ بِأَرْجُلِهَا
تَجدُ الْكلماتُ فيه معَانيهَا الضَّائعَة
ويُعْلِنُ فيهِ الْوَطَنُ انْتِماءَهُ للإنسان

ـ٨ـ

مَا زِلْتُ أَظُنُّ أَن مُنَاجَاةَ الْهَائمِ أَكْثَرُ عِشْقًا

من غَرَامِ البعوض.

ديسمبر ١٩٨٩

البَحَّـــــــار

(للصديق العزيز كمال الدين محمّد)

ـ١ـ

بِجَانبِ أَقْرَبِ مِيناءٍ منْ مَنْزِلِنا
شَارعٌ طويلْ
كانت تَرْحَمُه الشَّمسُ،
وتَعْشَقُه نَسَماتُ المغْربْ.

ـ ٢ ـ

أَذْكرُ ـ عندما كنْتُ صغيرًا ـ
بَحَّارًا عَبَرَ الشَّارعْ.
سارَ طويلاً في الظِّلْ.
كَانَ البحَّارُ جميلاً، مُبْتَسمًا، وبدون وطنْ
كَانَ يُحبُّ الشَّايَ، الأطْفَالَ، وأنغَامَ الليل...
كانَ البَحَّارُ يُغَنِّي،
يُهَامسُ كلَّ الفرَّاشات،
يُحَدِّقُ في لونِ البَحرْ

ـ ٣ ـ

سأَلْتُ البحَّارَ عن العشقِ، الرمزِ، الدينِ
الشهْوة، تَاريخِ الجِنْسِ، وَسِرِّ الأَرْقَامْ
عن الشِّعْرِ، المَوتِ، وطعمِ الماءْ.
عن مأْسَاةِ الإنْسانِ وألْوانِ الكَلماتْ.

ـ ٤ ـ

أَعْرِفُ أَنّي أَعْشَقُ من تِلْكَ الْوهْلَه
وَقْعَ الأَقْدامِ الهَادئِ في الظَّلْ
أعْشقُ لَوْنَ الشاي.

ينـــاير ١٩٩٢

إبريقُ الدمـــع

(للصديق العزيز محمّد حسين هيثم)

ـ ١ ـ

عندما عَدَوْت تَلْتَهمينَ أَصَابِعك
في معمانِ الجُنُونِ العارِم،
قَرَّرَت الغربانُ أن تَرْسُمَ مظلَّةً تَحْجُبُ السماءَ عنِ الأرْضْ،
تَناءَى البجَعُ عن الشاطئ،
واحْتَفَلَتِ الْفيرانُ ثَمْلَى بانتِصارِهَا السَّادس.

ـ ٢ ـ

حينَهَا،
قَضَّيْتُ النِّصْفَ الثَّانِيَ منْ عُمرِي
أَشْرَبُ مثْلَك دَمْعِي
[آه، مَا أَعْذَبَ إبريق الدمعْ!]
أَغْتسلُ بدَمعي
[آهٍ، ما أَصْفَى سَيْل الدمعْ!]

ـ ٣ ـ

آه...
يا مدينَتِيَ المسكينَة!

يونيو ١٩٩٤

الوشـمُ والكلمـات

(للصديق العزيز عبدالرحمن عبدالخالق)

ـ ١ ـ

قَبلَ أَنْ أُقْفلَ بَابَ المنزل
مُتَّجهًا نَحْوَ الصَّحْرَاء،
نَقَشْتُ على صَحْنٍ أَبْيضْ
[هُوَ إِرْثِي الأَوْحَدُ منْ أمِّي]
إِسْمَك،
نَسَجْتُ الإِسْمَ بِحبْرٍ ذَهَبِيّ
[كَانَ رَحيقُ الزَّعْفَرانِ هُوَ جُلَّ مَا أَهْدَاهُ أَبِي لِي]
غَسَلْتُ الإِسْمَ بمَاءٍ بارد،
شَرَبْتُ الإِسمَ،
صَارَ المَحْوُ دمًا في أَحشَائِي،
وارْتَسَمَ الإِسمُ بكُلِّ خليَّه

ـ ٢ ـ

تَشَرَّدْتُ بَعْدهَا منْ أُفُقٍ إِلى أُفقْ
أَبْحَثُ عن نخلةٍ في نهَايَةِ الصَّحْراء
يَجْلسُ تَحتها «أَ...»
يَصْنَعُ أَبْجديَّتَهُ السابعةَ والخمسين:
«كَانت الليلَةُ كُوخًا بَدَوِيّاً
والمصابيحُ قَبيلَةْ،
وأَنا شَمْسٌ نحيلةْ
تَحْتَهَا، غَيَّرَت الأَرْضُ رُبَاها
والتقى التَّائهُ بالدُرُب الطويلَةْ»
[كانَ الْغُبارُ ملَوَّثًا بالدَّمْ،
كانت الصحْراءُ جِبَالاً من أَلْسِنَةٍ مُمَزَّقة
وأيَادٍ مَبْتورَة،

ومن جُثَث نسَاءٍ يلدنَ « مُشَذَّرات »
ويَمُتْنَ خَلْفَ الحِجَاب...]

ـ ٣ ـ

مَرَرْتُ بأدْغالٍ ثَلْجيَّة،
أبْحَثُ عنْ أَطْرافها، هناكَ، حيثُ « م... »
يَتَوَضَّأُ بصَفَاءِ الرّيَاضيات،
يُداعبُ آخرَ الأَسْئِلَةِ التّي تَكَادُ تَشْبَهُ المعادلات الإلهيه،
يُفَتِّشُ عنْ أقربَ جزيرَةٍ من سدرَة المنتهى،
عنْ أقْربِ مقْهىً من مَلَكُوت العرش،
هُناكَ، حيثُ تُسْمَعُ أَصداءُ مُدُن الملائكة
[كَان الثّلجُ مَلَطَّخًا بالدَّم،
بهيَاكلِ أَطْفَالٍ محْروقَة،
بملايينِ رؤوسٍ محْفورَةٍ بالرصاص،
بجبالٍ من بارود...]

ـ ٤ ـ

عَبَرْتُ محيطا،
أبحثُ في أقْصاه عن « ك... »
يُعلِّمُ أسلاكَ السيليسيوم
كيفَ تُغَنِّي.
يَزرعُ خلاياً دِماغِيّةً في حُقُولٍ منْ أصْدَاءِ الحديد
يرسمُ من الصفرِ والواحد
آخرَ ملحمةٍ للإنسان
[كان المحيطُ مراتع داكنةً لتماسيح تعيشُ جوعًا أبديّا،
تلتَهِمُ الأرضَ، الرِّيحَ، الإنسانَ
وريشَ العصفور...]

ـ ٥ ـ

عُدْتُ بعدها أُفَتِّشُ عن ذَاكَ المنْزل
كانَ الصّحنُ الأبيَضُ مَكسورًا،
والحبرُ الذهَبِيُّ رمَادًا،

والمنزلُ ـ كالشارعِ ـ عِهْنًا منفوش،
أَشْلاءَ حروب.
لمْ يبقَ شيءٌ لي من تلك الحارة
إلاَّ وشْمٌ في الأَحْشَاء،
كَلماتٌ في الجَيْبْ
تُذَكِّرني الصّحْراءْ، أَطرافَ الثّلجِ
تُذَكِّرُني الغابة.

سبتمبر ١٩٩٤

سِيْـــرةٌ صغيرَة

(لِأوائلَ أصدقاءِ الطفولة المبكِّرة، والشباب، والشيخوخة، ومابعد الشيخوخة: حميد، جمال، ضياء، نائف... وآخرين كثيرين سيعذروني إن لم أذكر أسماءهم هذه المرة!)

ـ١ـ

في أَوجِ النهارِ هَرَعْتُ إليك أَقُولُ:
« أَنْبَلُ الأَسْئِلَةِ أَهْوَنُهَا تَرْكِيبًا وأَصْعَبُهَا مَنَالاً »
لَمْ تُجيبي...
عَبَثٌ كُلُّ سُؤَالٍ في عَيْنَيْك
والبحْثُ عن الْحَلِّ جُنُون.
تَبَاعَدَتْ من حينِهَا خُطَانَا
بَحَثْتُ عن الماءِ وكنْتِ النَّار
تَوَضأَتُ الظِلَّ بَعيدًا عَنْكِ وأنْتِ تلوكينَ الجمر...

ـ٢ـ

صفحًا إنْ صَارَ مَدَادي ثلجَاً!
صفحًا إن نامَتْ كَلماتي في قَبْرٍ دافىءْ!
عُذْرِي، أَنِّي منْذُ القيلولة
أركُضُ نَحْو البابِ الخلْفيّ
أَبْحَثُ عن عُقْدٍ لم يلمسْ يوماً عُنُقِكْ
أَتَعَلَّمُ كَيْفَ أُجَدِّدُ قُبلاتي
وأُفَتِّشُ عن طَوَّافٍ أَخْضَر
عن بَدوِيٍّ عَلَّمَ موسى الحكمة
يَشرَحُ لي كيْفَ أرى في جُرْحِكِ مِفْتَاحًا للْحُلْم.
صفحًا إنْ كَان القَاعُ مَرَامي!
إنْ كانتْ رَائحَتي: اللَّهْثَ وراءَ العُمْق،
إنْ كُنْتُ أُرَتِّلُ آيَاتَ الجذرِ،
أُصَلِّي بينَ الشُّعَبِ المرجانيه
فَأَنَا أَصبو أنْ أَنْظُمَ حَلَّ « مُعَادَلَةِ الكلماتْ »

باقاتٍ تُوقِظُ هَذَا الْعِشْقَ النَّائِمَ في عيْنَيْك.

-٣-

ثُمَّ أَجيئُ إليكِ مساءً في إحْدَى حَارَاتِ الزمنِ المفقود
«تكونينَ وحْدَك حينَ أَجيءُ أَدُقُّ على الباب»
أُقَبِّلُكِ كثيراً قبلَ أَنْ نَهْرَعَ خَارجَ المدينه
لنجْلسَ على الرَّبْوَةِ الصغيرةِ حيثُ ينتَظِرُنَا القَمَرْ.
تَبُوحينَ لِي بسرِّك الوحيد
وأكونُ صَامتًا، صَامتًا
لأَنِّي تَعَلَّمْتُ كيفَ أَنْقُشُ كلماتي في صفحاتِ الرَّمل
لتكونَ الصَّحْراءُ مَرْآةَ ذَاكِرتِكِ المفقودة!
بَعْدهَا،
أَكْتُبُ قَصيدَةً عن جمَالِ نَهْدَيْك
عن دفْءِ نهْدَيْك...
هَوَذَا يَاقُوتي الأَحْمرْ!
هَوَذَا آخرُ أَحْلامي
هَوَذَا حُلْمِي الأَوحَدْ!

اكتوبر ١٩٩٤

قافِلَــةُ المنكوبيــن

(للصديق العزيز أحمد علي عبدالله)

ـ ١ ـ

ضائعَةٌ قَافلةُ المنكوبينْ
تَبحَثُ عن ظلٍّ، مَاءٍ وطحينْ
تَلْهَثُ بينَ «صَقَارَةَ» و«الأَحْقَاف»
رِجْلٌ في الرَّمل، ورِجلٌ في الطين
تتغَذَّى بالذِّكْرَى والأَشْواق
لزَمانِ البَهْجَة والنسرين
تُرَدِّدُ: «كَانَتْ بَغْدَادُ لنَا تَاجًا!
كان لنا ظلٌّ في الصين!»
منْ فَشَلٍ تَخْطُو الْيَومَ إلى فَشَلٍ
قَيْدٌ في الرَّأْسِ وفِي الرِجلين

ـ ٢ ـ

قَافلتِي تحيَا اليومَ بِلا
هَدَفٍ، تمضِي دونَ يَقِين
الْخوفُ منَ القَائد هَشَّمَهَا
الذّلُّ منَ المَهْد لها دِيْن
الرَّأْيُ بها جُرْمٌ ممنوعٌ
الثروةُ يلْهَفُها تنّين.
قَائدُهَا يَتَبَخْتَرُ مُنْهَزِماً
يَضْرِبُ إنْ كُنَّا المضْروبين
يعشقُ أَنْ نَحيَا قِطْعانًا
يَهْوَى أَنْ نُدْفَنَ
أُمِّيينْ.

ـ٣ـ

قَافِلَةُ الآلامِ، لماذا نحيا

إِنْ كَانَ لنا أنْ نحيَا
مُنْكَسرينْ؟
إِنْ كُنَّا نَبْغِى مَلَكُوتًا أَسْمَى
فَطَرِيقُ الْعَلِيَاء صُعُودٌ وضَنِينْ:
هَلْ تُتَوَخَّى الذَّاتُ العُليَا
دونَ وضوءٍ،
دونَ صَلاةٍ
وحنـــين؟

يناير١٩٩٥

ب) نصوص شعريّة–قصصيّة

القُبْلةُ الفَــاجِرة

(لإبْنَةِ النارِ والماء)

ـ ١ ـ

[رأَيْتُك يومًا، يَا ابْنَةَ كُلِّ الأَوطَانْ، في ميناءٍ أَشْهَبٍ تَقْتربُ منْهُ سفُنٌ حَزينة.
كَان ذلكَ اليومُ أَزرقاً مُضيئاً إلاَّ أَنَّه تأَخَّر عشرينَ عاماً عن موعده الرِّياضيِّ.
(كُنْت تَعيشينَ حيْنَها عشْقَك اليوميَّ اللذيذ، وأَعيشُ عشْقيَ اليوميَّ اللذيذ).
قُلْنا لبَعْضنا في أُولى النظرات: «لنكْرَهَ حُدودَ الزمانِ والمكانِ التي سَفَكَتْ دَمَ التحَامنا». وقُلْنا أَيضًا: «إنَّ قَدَرَنا هوَ أَنْ نَفْتَحَ في كلماتنا اليوْميَّة نَوافذَ سرِّيَةْ تَخْرُجُ منهَا كلماتٌ أُخْرى، مرتعشة، لا يراهَا الآخرون، نُمارسُ فيها حُبَّنا الذي خَانَتْهُ الحُدودْ».
وفي يوم ما كانَ لنا أَن نَختليَ معًا لَحظَاتٍ مَعْدودَةً رتَّلْنَا فيها بعضًا من الشِّعر.
قُلْت: «أَيُّ وطَنٍ لنا غَير الشِّعر؟ أَيُّ ماءٍ يَرْوينا غير موسيقاه؟» تساءَلت (في هذا الزمنِ الشاحب) عمّنْ يَنشرُ الدفءَ في أَضْلُعٍ باردَة، عمّنْ يُحيي العظامَ وهيَ رميم. وأَجَبْت: «كانت الأرضُ خَربةً وخاليه، وعلى وجهِ الغمرِ ظلمةٌ، وروحُ اللهِ يرِفُّ على وجهِ الماء. وقال اللّهُ ليكنْ شعْرًا فكَانَ شِعْرًا»]

ـ ٢ ـ

خُذِيني بعيدًا عن النارِ والعاصفه
خُذِيني إلى «الخَبْت» خلْفَ المدينه
خُذيني إلى مُهْجَة اللَيلِ، قُرْبَ القمرْ
بَعيدًا عن السيْرِ فوقَ الضّفادع
خُذيني إلى المهدِ، فوق الرمال
خذيني ليَثْرِبْ!
هُنَاكَ، على هَودَجٍ نبدأُ الإمتزاجْ
هناكَ، تَشَكَّلْتُ يومًا
منَ الوُجْدِ والشِّعْرِ والإمتداد.
هُنَاكَ قفِي نَقْطفُ التَّمْرَ
قَبْلَ النزولِ إلى ضِفَّةِ الوصْلِ عندَ المحيطْ،

ثَمَّةَ، في خيمَةٍ (بينَ وادِي العُطورِ ووادِي البخُورْ)،
نَشْرَبُ الشّايَ والذّكريات
نُصغِي إلى الريحِ يَحكي لنا
قصَّةَ الْمَهْد، رقصَ النّخيلِ، روَائحَ بَلقيسْ...
يُذَكِّرُنا جَنَّةً ضَائعَه
تَحِنُّ إلى الغيث تحت الرمال.
وفوقَ الرمالِ ـ يُحَدِّثُنا الرّيحُ ـ
رائحَةُ الموت تطفُو
وَيورِقُ ليلُ القَبَائِلْ.
دَعِي الريحَ يَحكي!
دَعيني أُحَدِّقُ في مقلتَيْك
وفي وردِ ثَغْرِك ينْسَابُ لَحْنًا سعيدًا...
[ليَكُنْ ينبوعُ حديثك دونَ نهاية! ما أجملَ سَيْل الكَلمات بثغْرِك، إنّي أَعْشَقُ مَطَّاطيَتها، أَعْشَقُ نَبراتَ حُرُوفك، دفْءَ تَلاَمُسهَا. أَعشَقُ نَسْجَ عِباراتك، أَعْشقُ رَائحَةَ تواصُلِهَا. أعْشَقُ أنْ أَتَنَفَّسَ صَوتَك، أن أَنْدَمِجَ بِمُنْعَطَفاتِ توازُنِه، أَنْ أرْحَلَ فَوقَ بِسَاطِ تَنَاغُمِه... وأُهَاجِرَ فِيْه لأَصْقَاعٍ لاَ أَطْرَافَ لها].

ـ ٣ ـ

سَمَرْقَنْدُ أَنْت!
خُذِيْنِي إليْهَا.
أَرِيني مسَاجِدَها، كُنوزَ قَوافلِها، طَريقَ جميلاتِها...
تَعالِي نَقرأُ ماضِيَها في نظَراتِ العيْسِ،
نُسائِلُهَا:
منْ يَبْعَثُ في ماء الوردِ رَوَائِحَهُ المنْسِيَّه؟
مَنْ يَتْلُو سورَةَ الْكَهْفِ والعَادِيَّاتِ
بصوتٍ مُشِعٍّ؟
فَدَيْتُك!
أَضِيئِي بِعَيْنَيَّ ليلاً تَوغَّلَ فيه الْغُبارْ
دَعِيْنِي ـ رَجَوْتُك ـ أَنْهَمِرُ حنينًا
لِبَغْدَادَ في مُقْلَتيك.
تَلَظَّى بِيَ الشوقُ،

مُرِّي يَدَيْكِ على هامتي
خُذِيني،
ثَمَّةَ حَانَاتُ مَرَّ الخيَّامُ بجانبِها
نَشْرَبُ فيها خَمْرًا مِسْكِيّاً
ونَهيمُ معَ لحْنٍ مَجْروحٍ يَتَدَفَّقُ في أطْرَافِ العالمْ...
دَعِيْنِي هُنَاكَ أُغَنِّي:
«على وَجْنَتَيْكِ السلام!
سلاَمٌ على الماءِ والعشقِ والذَّاكرَة!».

ـ ٤ ـ

بَاريسُ أَنْتِ!
خُذِينِي إليها.
أَرينِي بمرآةِ عَيْنيكِ أَلْوانَها
أَريني خِيامَ عَصافيرِها،
مقاهي فراشَاتِها...
تَعالي نُلَمْلِمُها شَارِعًا شَارِعًا،
نَرُشُّ بها آيَةَ الدفْءِ ممزوجةً بضيَاءِ الصّحارِى
نُوضِّيُهَا بعطرٍ أَكَاسيرُهُ مِلْكُ عَادٍ وبابلْ
ثُمَّ هَلُمِّي نَحملُ جَبَلَ الزّيتونِ إليها
نَفْتَحُ صَحْرَاءً للأهْرَامِ بِجانبِها
هُناكَ امْطِرينِي حديثًا
[كَيمَا أُفْنَى في عَطْرِ شفاهكِ يَتَفَجَّرُ بينَ ضَفَائرِ كلماتكِ،
ثمَّ اسمحي لي أَنْ أَسْجُدَ في وطَنِ نَهْديْكِ،
أَنْ أُودِعَ فَوقَ شِفاهكِ: قُبْلَةً واحده.
قُبْلَةً فاجره.]

يوليو ١٩٩٥

شيئٌ ما يُشبِهُ الحُبّ

(لِمَلِكَةٍ تقاومُ الموت)

-١-

ثمّةَ، بين وجهِك القمحيِّ المبلّلِ بلونِ الوردِ الفاتحْ، وشَعْرِكِ المكتضِّ غامقِ السوادْ، تضامنٌ سِرّيٌّ جليّ...

ثمّةَ، في بريقِ عينيك الشديدتي السوادِ أيضاً، عبقريةٌ طافحة، آسِرَةٌ جدا، وموسيقىً لا أجدُ شبهاً لإيقاعها إلا في نغماتِ صوتِكِ السائلِ العذبْ...

تعرفينَ، ونعرفُ جميعا، أنّكِ شهيدةٌ تقاومُ الموت، فرّاشةٌ تطيرُ فوق أشداقِ تماسيح، أغنيةٌ تصدحُ أمام قبيلةٍ صمّاء، ممشوقةٌ تتمخطرُ في ثكنةٍ حربيّة...

تعرفينَ، ونعرفُ جميعا، أنّكِ تَسيْرِينَ على درب الصليب، وسطَ ألحانٍ جنائزيةٍ كئيبة. خطيئتُك: شموخُك الناعمْ، إلهامُك الدائمْ، وضَمَؤك العنيفُ للحُريّة! أَلَسْتِ وحدَكِ إذنْ أُضْحِيةَ كلماتِكِ الملهَمة، وجمالِكِ القاهر، وسُموِّكِ الفِطْرِيّ على طقوسِ القطيع؟

تعرفينَ، ونعرفُ جميعا، أنّكِ ملكةٌ بلا تاج! لأننا في دَغْلٍ نهبَ عسكرُهُ التيجان، وطبّلَتْ لهم واجهاتٌ مدنيّةٌ من الماهرينَ في مسحِ الأحذية، الذين لا يستطيعون النومَ إذا لم يُسكِرْهم اليقينُ بأنّهم كتاكيتُ الأحزابِ الحاكمة. يضمنُ لهم ذلك شراءَ كمّياتٍ كبيرة من رباط العنق، وسيّارات «الصالون»، وتلفزيوناتٍ عريضة في كلّ غرفةٍ من غرف ڤيلاتهم الفارهة، ووجباتٍ أمريكية يوميّة لأطفالهم الذين يدرسون في مدارس مُحَصّنة سعرُ رسومها أكثرُ من عشرةِ آلاف دولار في وطنٍ لا يزيدُ راتبه المتوسط عن سبعين دولار!

-٢-

ثمّةَ، أيتها الملكةُ المسروقةُ التاج، في الطرفِ الغربيِّ من عَدَنْ، وراءَ جبلِ قلعة «صِيْرة» بالتحديد، في نقطةٍ تلاقي واجهتِه الخلفيّةِ بالمحيط الهنديّ، رقعةٌ صغيرة أحلمُ أن نمكُثَ فيها ساعاتٍ طوالْ، نستندُ على إحدى صخورها القريبة

جداً من نهايات الأمواج الهادئة الخفيفة. ينكسرُ الموجُ قربَ أقدامنا بتواترٍ لذيذْ، لذيذٍ جداً، تزيدُ لذّتُه مع زيادةِ رتابتهِ وأشيشِهِ اللذَيْنِ يغسلانِ فينا كلّ أدرانِ الإرهاقِ والتعبْ.

نراقبُ أسراب النورس وهي تفرُّ وتكرُّ حولنا، تهفُّ وترفّ، تفرحُ وتمرحُ في كلّ أنحاءِ الرقعةِ التي نجلسُ فيها... تجولُ أنظارنا طويلا في نصفِ الفضاءِ الكونيّ المترامي أمامنا بين زُرْقَتَي السماءِ والبحرِ الناصعتين.

في أقصى نهايات أنظارنا، نحو اليسار، تقعُ سواحل استراليا التي نكاد نلمحُ قطيعا من الكنغر على مقربةٍ منها. على اليمين، يلتوي شرقُ أفريقيا الذي نكادُ نسمعُ ضجيجَ لُغاتِه الساحليةِ اللذيذة. وفي الأمام، لا شئ غير الأفق الناعس التي تحاول أنظارنا أن تنزلق خلفه، ملامسةً كرويّة الأرض، لتهرولَ باتجاه تخوم السويد ومملكة النرويج.

تجلسين قُربي بهامتك الملوكيّة وشعرك التاجيّ. تفوحُ منكِ رائحةُ بخورٍ عدنيٍّ عارمة، تتخلَّلُها شذراتٌ من عطورٍ فرنسيّةٍ فاخرة تتسرّبُ من معتقلاتها المقدّسة كلّما تنزلقُ أصابعكِ قليلا، أو عندما تُحرِّكين رأسكِ باتجاهٍ ما...

أرتّلُ أمامكِ كلَّ سخافات الدنيا، وأمتع مايفرزُهُ عبثُ حياتنا من فكاهاتٍ مُرْعِبة. أضحكُكِ وأضحكُكِ وأضحكُك. أضحكُكِ ساعاتٍ طوال حتّى يسيلَ بريقُ عينيكِ غزيراً منهكاً من الثمالةْ. لعلّي لا أبتغي غيرَ إعادةِ الابتسامة التي غابت عن شفتيكِ الرقيقتينِ منذ أمد، أو ربّما لم تلامسهما أبدا. لعلّي لا أصبو لأكثر من بسمةٍ رضاً على ثغركِ الجميل، أيتها الملكة المسلوبة. أو ربما أبحثُ عن شيئٍ آخر، شيئٍ ما يشبهُ الحبّ، (أقصدُ، شيئاً ما أكبر من الودّ وأصغر من العشق). أو ربما أبحثُ في نهاية المطافِ عن شيئٍ آخر لا أعرفُه بعدْ: أكبرُ من العشق، أكثرُ من العشق، أقوى من العشق، أفتكُ من العشق...

أغيبُ لحظاتٍ بعدها، لأبحثَ عن «شروخٍ» إصطادَها على التوّ الصيادون القادمون بقواربهم نحو المدخلِ الأمامي لِصيْرة، حيث يرتصُّ بائعو السمك، يُقَرْفِصون أمام مفارش مشحونةٍ بألذِّ شروخ وأسماك الأرض، تفْصلُهم زنابيلُ صغيرة، حجارةٌ يتّكئون عليها أحيانا، وفوانيس زيتيّة يزمعون البدء بإيلاعها. أحملُ شروخكِ للشواء في «موفى» «مخبازةٍ» مجاورة، أحملُ أيضا «ربيساً» من فتاتِ سمكِ القرشِ المقلي، كومةً من خبز «الرشوش»، عصيرَ ليمونٍ طازج،

و«هريسةً» لحجيّة من الصنف الذي تُحبّينه.

أفرشُ كلّ ذلك أمامكِ فوق طاولةٍ صغيرة بجوارِ الصخرة التي نتكئُ عليها، بعد أن أضعَ إحدى أغاني فيروز التي تفضّلينها في المُسجّلة المركوزة أسفل طرف الطاولة. أضعُ أمامي، إذا سمحتي لي، وجبةَ بوشكين المفضّلة: بضعة «دَرَازِن» من محارات الصدَف وقنينةَ شمبانيا من النوع الفاخر، أنوي أن أتمضمضها بتأنٍ طويل.

تنتهي حينها لحظةُ الغروبِ المقدّسة، تبتعدُ طيورُ النورسِ عن الصخورِ المجاورة في اتجاهاتٍ مجهولة، ويبدأُ ذلك الظلامُ الفضيّ المهيب الذي يغمرني بالإيمان بكلّ الآلهة.

-٣-

...عفواً، إعذريني أيتها الفاتنةُ الصغيرة! لعلّي غيرُ قادرٍ على تحقيق ذلك الحلم، أو حتّى مرافقتكِ إلى مشارف شواطئ صيْرة! لأنّ ثَمّةَ عساكر حُمرُ العيونِ كثيرون، بملابس مدنيّة، يجلسونَ في نفسِ تلكِ الرقعةِ التي اخترتُها للاحتفالِ بك، يُحبّون التجمّعَ هنالك لِـ«تخزينِ» القات حتّى بلوغِ أعلى مقامات «اللخَّاجْ»، للسُكرِ الليليّ حتّى بلوغ لحظة الإنتقاعْ، ولأخذِ الصوَرِ التذكارية... غير أنهم لا يُحّبون كثيراً أن تقتربَ المرأةُ من تلك الشواطئ...

-٤-

ثمّةَ، أيتها الملكة الورديّة ذات الشَعرِ الفاحم، بعيدا عن «طورِ الباحة» و«حوض الأشراف»، بعيدا عن «سوق الملحِ» وأطراف «المْدارة»، بعيدا عن الصُوَر التذكاريّة لعساكر سواحل صيْرة... كاتدرائياتٌ ومساجد بهيّة، منتزهاتٌ وشوارع وشواطئ تغمرُها الألحانُ البهيجة والشِعْر والمتعةْ، يكتضُّ بها الجمالُ والهدوءُ والحبْ، وتخلو كليّةً من ضوضاء العسكر.

ثمّةَ، مرافئُ مشحونةٌ بالدفءِ والحريّة والسفنِ الجميلة.

ثمّةَ، بعيداً عن ديدانِ حُفَرِ «الصافية» و«حافة الدُبَعْ»، بعيدا عن أشلاء عشرات الكلاب المطحونة على طول طريق السيارات بين صنعاء وعدَنْ... حدائق وقصورٌ ومتاحف كثيرة أريد أن أراكِ تُحدِّقين فيها طويلا.

ثمّةَ، أيتها الشاعرةُ الرقيقة، مواضع كثيرة أريد أن أراكِ تتسكّعين فيها

بجانبي: مرفأُ «قاضي كوي» في إسطنبول ومقاهيه الطليقةِ ذوي المقاعد الواطئة، الحيُّ الأوربي في نيويورك، ممرّاتٌ هادئةٌ في جزيرة مونومقاسيا في اليونان، مقهىً لطيفٌ «للشِيْشة» خارج قرية «نُوَيْبِعْ» في سيناء، مطاعمُ أنيقة على مشارف «مونمارت» في باريس، أجرافٌ منزوية في شواطئ «سانت مالو» و«بافوس» و«طنجة» و«رأس الرجاء الصالح»، جبالٌ جليديّة مذهِلةُ الجمال في أطراف بورتلاند في شمال غرب أمريكا، غاباتٌ مملوءةٌ ببحيراتٍ جميلة في شمال «تركو» بفنلندا، صخورٌ ملوّنةٌ في جبال «البتراء» نَحتَ الأنباطُ في أغوارِها مُدُناً ومآثر نادرة، طريقُ سياراتٍ ريفيٌّ صاخب بين چيبور، حيث تمتدُّ في الأعالي قصور الماردْچا، وأجْرَا، حيثُ يتخلّدُ تاج مَحَلْ، أو بالأحرى حيثُ يتخلّدُ العشقُ محفوراً في حجارةِ تاج محل، في عبقريةِ سنائِه، في قصّةِ غرامِه، وفي العناقِ الخالدِ لضريحيه...

ثمّةَ مقاهٍ متناثرة إرتادها بانتظامْ چان بول سارتر، سيمون دو بوفوار، بولينيير، كافكا، بوشكين، نجيب محفوظ، سلفادور دالي، بيكاسو، هيتشكوك، شارلي شابلن، چاك بِرِل، چاك براسنس... ستكونين سعيدةً جدا باحتساءِ فنجانِ قهوة أو عصيرِ مشمشٍ في أحّد مقاعدها. ثمّةَ منازل عاش بها أراجون، شكسبير، كارل ماركس، ماري كوري، اينشتاين، فيكتور هيجو، ارثور رامبو، أدونيس... ستكونين سعيدةً جدا برؤيةِ نفسِ ذلك الضوء وسماعِ نفسِ ذلك الصمتِ الذي ترعرعت أقلامهم في أكنافِه...

ثمّةَ كرنڤالاتٌ ملوّنةٌ مثيرة في ريودي چانيرو وتايتي، شوارعُ طويلةٌ هائلة في طوكيو تكتضُّ بأحدث المنتجات الالكترونية. ثمّةَ أكشاكٌ مملوءةٌ بالكتب النادرة والصحف القديمة ترتصُّ على طول نهر السِيْن من الحيّ اللاتيني حتّى متحف اللوڤر. ثمّةَ مقاهٍ رومانسية في أماكن شتّى من كوكبنا الأزرق، يأتيها الفتيان بخطواتٍ حالمةٍ خفيفة، حاملين ورودا أرجوانية يُقدِّمونها لمعشوقاتٍ جميلات يلبسنَ فساتين بلا أكمام طوال فصول السنة.

نعم ملكتي المخلوعة! ثمّة عوالم كثيرة ترقصُ بها قهقهاتٌ مُشبَعةٌ بالحلمِ والعشقِ والحريّة، لا تمارَسُ فيها القُبْلةُ عندما تنقطعُ الكهرباء فقط، لا تدخلُ فيها المرأةُ البحرَ مغمورةً بطَنٍّ من العباءات، لا تتحدّثُ فيها مع الرجل بحضورِ شهودِ القبيلة، ولا تُطردُ من عُشِّها الزوجي عند الطلاق حاملةً «بُقَشَها» وكراتينها ككلبةٍ مجروحةٍ طريدة...

ثمّةَ عوالم كثيرة أحلمُ أن أستنشقَ رائحَتكِ في أرجائِها طويلا.

اكتوبر ٢٠٠٠

لا صوتَ يعلو فوقَ صوتِ النحيب

(لِلَّتي فضّلتْ عرضَ البحرِ على الصحراء، واختارت لحياتِها طريقَ الخلقِ والبعثِ الدائم، طريقَ الولادةِ المتجدّدة، طريقَ الآلام)

-١-

في البدءِ كان هناكَ اسْمُك... ذاكرةُ اسْمِكِ مفعمةٌ بأجملِ الأوجه التي عشقتُها، بأنبلِ الميثولوجيات التي قدّستُها، بوهَجٍ يُذيبُني، وبإلكسيرٍ يُسكِرُني منذ أن بدأتُ أدركُ طعمَ الأشياء.

في البدءِ كان هناك اسمُك: «م...»، تلَتْهُ كلماتُكِ المفعمةُ برائحةِ الأرض، بجُوعِ الأطفالِ ونحيبِ الألمْ، بالرقّةِ والابتساماتْ، بالشموخِ والحريّة.

وفي يومٍ هادئٍ نظيف، قرّرتُ أن أقتربَ من ظلالِ كلماتِك، أن أتمرّغَ في تُربتِها، أن أتسكّعَ في عوالمها، أن أعتكفَ في أحضانها...

بعثتُ لكِ الرسائلَ المتواليةَ لِأُناجِيك، لِأفْتَحَ أمامي أبوابَ مرابِعِك الابداعية، وأنهلَ بشراهةٍ من معينِ تلك الكلمات...

مَلَأَتْ رُدودُكِ اليومية الغزيرة فضاءَ حياتي رويدا رويدا. كلّ رسالةٍ منك تطوي في آنٍ واحد سيناريو فيلمٍ كامل، أغنيةً جميلة، نصّاً عبقريا طازجا، لوحةً متجدِّدةَ الجمال والتصميم... كم تبدو صورتُكِ شفيفةً رقراقة على سطحِ نهر كلماتكِ اليومية! تُصوِّرُكِ عدساتها بدقّةٍ لامتناهيه، كما أنتِ تماما، عندما تبكين وتضحكين، عندما ترقُصينَ وتُغنّين، عندما يلتهمكِ الشوقُ والعشق، عندما ينكّدُ أيّامكِ الزيف والعبث، ويؤرقُ لياليكِ الظلمُ والمنكر...

تعرفين بشكلٍ مدهش كيف تُسمعيني، من داخل رسائلك، الأغنيةَ التي تُصغينَ إليها، كيف تجعليني استنشقُ رائحة مقبض «الدِّسْتْ» الذي يحترق في المطبخ وانت مستغرقةً في كتابتك، كيف تجعليني أشاهدُ لون ضياء الفجر في شُقّتِك العدنيّة المطلّةِ على البحر.

تعرفين كيف تُصيغينَ لي بسخريّتك الاسطوريّة آخر يوميات مدينتنا المنكودة. تنقلين لي بأحرفٍ صوتيّة آهات البحرِ الذي تتحدّثين عنه في كل

رسالة، والذي «أصيب بالعمى» هذه الأيام، كما قُلتِ في رسالتك الاخيرة. تحدّثتِ عن مرضٍ جديد أصاب بِحارَنا: «عمى البحار»! مرضٌ يغشى بصرَ من يعوم فيها! «حتى البحر أمرضوه: جابوا للبحر العمى! من يُعمي البحار إلا هم؟ الله يعميهم!»، قُلْتِ بغضب، ما أحلى غضبك! ثم تنهّدتِ نهدةً عميقةً أذابت مفاصلي، قائلةً: «نحنُ، لا شيءَ دونَ هذا البحر! إنظرْ كَمْ هُم موتى أولئك الذين لا يغتسلون بهديره، ولا يتطهّرون في أحشائه!...»

كم هو شفّافٌ في رسائلكِ ذلكَ الخيطُ الهوائيُ الذي يفصلُ (إن كان لهُ أن يفْصِل) بين الفكرة والمعنى، بين الإحساس والكلمة، بين أقبية المشاعر العميقة وجدرانها اللغوية اللامرئية!

صرتُ رويدا رويدا عاشقَ كلماتك، أردّدُها ك«مَهْجلٍ» يوميّ، «أُمِّمُها» بلا وعي. صِرتُ أسيرَ صدقِ مشاعرك وتدفُّقها الصاخب ياأجملَ عدوّةٍ للزيف! صِرْتُ مفتونا بقراءاتك المختارة، أحاولُ أنْ أتصوّرَ ما يدور في مشاعركِ أمام كلّ عبارة يمكن أن تقرأينها. أعيدُ الإصغاء لكلّ أغنيةٍ تحدّثتِ عن سماعها في آخر رسائلك. أتوَحّدُ مع أغانيك المفضلة دون نقاش. أتفاعلُ مع مشاكلكِ اليوميّة التي تفصلني عنها قارّات ثلاث! أتعكّرُ، أتنرفزُ، أفرحُ وأشتمْ، أؤَمنُ وأكفرْ... دونَ أن تَريْنَ شيئا من كلِّ ذلك. صرتُ، أيتها الشاعرة الرقيقة، أسبحُ في فلكِكِ بلا وعي، ليلَ نهار...

-٢-

ثمّ كان لنا أن نلتقي لأوّل مرّة أمام أحدّ شواطئ «جولد مور» البعيدة، في يومٍ هادئ ونظيفٍ جدا هو الآخر، حين جئتُ أهرعُ من طرف الدنيا، بحثا عن رؤيتكِ بضمأٍ وجنون. كان البحرُ، رغم عماه، يُحدِّقُ فينا ويباركُ خطانا عندما كنّا نمشي وحيدَين وحيدَين وحيدَينْ، لا ثالث لنا (هذا ما أحلمُ بهِ أبدا!)، متوجِّهَين نحوَ شارعِ «المُعَلّا» الرئسي، عبْرَ الطريقِ البحريّ الطويل. كانت ليلةً لطيفةَ الطقس، باهيةَ القمر، من أجملِ ليالي يناير العدنيّة التي خلقها اللهُ للتسكّعِ والعشق، واختارتها القبائل، ذات سنةٍ نكداء، موعدا للغدر والمجازر.

رأيتكِ يومها روحا وجسدا!

إستنْشَقْتُ جمالَكِ العبقري، شموخَكِ الملوكي، وحيويّتَكِ المتجدّدة. وجدتُ فيكِ ذلك العنفوانَ المبدع، تلك الطفلةَ الأبدية، ذلك النعيمَ الضائع، وتلك الملكةَ التي

أحلمُ بها أبدا... كلّ شيئٍ صادقٌ وقويٌّ في محياك وكلماتك ونظراتك... تحت ثيابك البدوية، ووراء لهجتك الْلَحْجِيّة، رأيتُ مدَنِيّةً مسكونةً بالشموخِ والحريَّة، مُشبَعةً بالتَّحضُّرِ والسمو، مغتسلةً بأرقى إشراقات الفكر والعقليّة المعاصرة، تفيض عذوبةً ورِقّةً وجمالا وفتنة!

أسكرَتْنِي عذوبةُ لهجتك اللَحْجِيّة! إعْلَمِي سيّدتي أنني عاشقٌ منذ صباي لِبساتين «الحُسَيْني»، لأغاني «القومندان»، ل«أكْوَاد» «الوَهْطْ» يوم كانتْ ثمّةَ أكوادٌ تحيطُ بالوَهْطْ... مفتونٌ بتقاليد الأُنْسِ والطَرَبِ اللحجيّة، بفنِّ وَشْمِ الحنّاء على جسد الأنثى، بطقوس العشق اللحجيّ شديد الغنجِ والحُريّة... لكن، منذُ أنْ سمِعْتُ تلكَ اللهجةَ من ثغرك أنت، طوالَ تلك الليلة، إنتفضَتْ متضاعفةً متوهّجةً كلّ عواطفي وأحاسيسي الدفينة، وأمسيْتُ مسكونا كليّةً بدلالك اللحْجِيّ، بسخريّتك اللحْجِيّة، بوشْمِ حِنَّائك الذي يسْحَرُني كقصائدِ غَزَلْ، بانغامكِ اللحجيّة ونبراتِها العسليّة...

-٣-

ثمّ كان لنا أن نفترقَ في شعابِ الجغرافيا القاهرة، التي باعَدَتْهَا يدُ الزمن الظالم وفَصَلَتْها بسياجٍ من ثلاث قارّات.

لم تتباطأ رسائلُنا بعد ذلك بالطبع، إزداد تواترها. هاجمتني عذوبةُ رسائلك المتواصلة باقتحامٍ إزداد ضراوة بعد تعارفنا الجسدي. صِرْتُ أعيد قراءتَها ألف مرّةٍ يوميا! أكتشفُ لغةَ فواصلِها ونقاطِها، طقوسَ استهلالاتها وخواتمها، أعُدُّ نداءاتها وآهاتها، أراقبُ نغمات كلماتها وجموحَ عواطفها، أدرس «مُشتقّات دالّات» «شدّة» تواصلها، أحسبُ كثافةَ كلماتها الحميمية و«نسبتها الكتلية» في مجموع كلمات كلّ رسالة، «أختضل» عندما يهبط قليلا الخطّ البياني لتلك النسبة، أحْزَنُ حينها كمن فقَدَ أهمّ حقوقه، وأقفز فرحا كالمجنون عندما يصعد ذلك الخط البياني قليلا أو عندما تفاجئني كلمةٌ حميمية جديدة أردتِ أن تنضاف إلى قاموسنا اليومي!

صِرتُ أردّ على رسائلك بكلّ جوارحي، أتنفّسُ موسيقاها في كلّ لحظة، أُدْمِنُ بنهمٍ أفيونَها المقدّس... تعتذرينَ فيها أحيانا عن «دَوْشَتِك»! دَوْشَتُك، سيّدتي، نصوصٌ ربّانية أحفظها عن ظهر قلب. إنها الموسيقى الوحيدة التي أسجدُ على أنغامها و«أذوب في متونها» حسب ذلك التعبيرِ الرقيقِ الذي تحبّين ترديدَهُ

كثيرا.

تقولين في بعض رسائلك إنكِ تَنْوينَ أن «تدوِّشيني» هذه الليلة. إدوشيني سيدتي كما تريدين! لكن إدوشيني، وإدوشيني دون توقّف! واوعديني أنك ستدوشِيني دوما...

«هذه هيَ م... بِشَقَادِيْفها!»، قُلت في إحدى رسائلِ دَوْشَةٍ جميلة أسكرتني تماما. أموتُ في شقاديفك، مُلهِمَتي! «أُقَرْمِطُها» بلذّة وشراهة، لا أريدكِ إلا بِشَقَادِيْفِك! فدونَ دَوْشَتِك الانيقة وشقادِيفها الشهيّة أشعرُ بالبردِ والجوعِ والبؤسِ والاكتئاب.

قُلت في إحدى رسائلك: «يبدو أنّكَ «ذَرَيْتَ لي وَزِفْ!» ففي اللحظة والأخرى أهرعُ لأبحث عن أي حرفٍ يصلُني منْكَ. وإذا لم يأت... ». آه، صغيرتي، فَديْتُ لِسَانك! ماأعذب تعبيركِ الريفيّ الذي أكتشفهُ لأوّلِ مرّة! ماأجملَ «اللحظة والأخرى» وحرف العطف بينهما! ما أقوى وأدقّ كلمتي «أي حرف» في رسالتك!... ثمّ، هل تعرفينَ أنّك، أنت، «ذَرَيْتِ لي ثَمَدْ» وأنني أشعرُ بشبهِ انهيارٍ عصبيّ عندما تتأخرُ رسائلُكِ دقائق معدودة عن موعدها الإفتراضي.

قُلتِ لي: «إشتَقْتُ لكَ جدا جدا». إرحميني صغيرتي! كم تُذِيبُني هذه العبارة عندما تأتي منكِ أنتِ تحديدا! لكنْ، هل تعلمينَ أن مليون «جدا» لن تكفيني لأُعبّرَ لكِ عن شوقي الذي لا أتجرأ أن أكيلَه أمامك...؟

-٤-

ثمّ قرّرنا ذات ظهيرةٍ شتويّةٍ رائقة أن نُعْلِنَ عشقَنا المشترك بصوتٍ واحدٍ صارخ، عِبْر مكالمةٍ تلفونية إخترقتْ ثلاثة قارّات. غير أننا بُحنا، في آخر المطاف... بعكسِ ذلك تماما!

طفلانِ كما نحن دوما، ضائعانِ كما نحن دوما، صادقانِ كما نحن دوما، إعترفنا بصوتٍ واحد أننا نعيش منذ ما قبلِ الميلاد، منذ مليون سنةٍ سبقتْ تعارُفَنا، عِشقَينِ قدريَّيْنِ آخرين يفتكان بكلٍّ منا على حِدَة...

إعترفنا لبعضنا مع ذلك أننا معادلةٌ مستحيلةُ الحل! فكلانا جذران تربيعيان لنفسِ العشق، لنفسِ الجرح، لنفسِ الألمِ والتطلّع، لنفسِ اللغة والنكهات التعبيرية... غير أن الجغرافيا والتاريخ، الحاضر والماضي، عواصف الأيام ومؤامرات السنين... قرّرت أن ينكتبَ هذان الجذران التربيعيّان في صفحتين

مختلفتين من نفس الكتاب.

إعترفنا أيضا أننا لن نجني غير العدمِ والنكسات إذا صارعنا تآلف القدر والجغرافيا وعداءهما المعلن لنا. تمنّيتُ لكِ قبل ختام المكالمة السعادةَ المطلقة (هذا ما دار في خلدي فعلا)، والعشقَ الذي لا يعرف الحدود (وإن راودني مِثْلُ حُلْمٍ دام عدّة ثوانٍ بأنني ربما كنتُ هو نفسَه ذلك العاشقَ المحظوظ الذي تتحدّثين عنه...)

لم أصرخْ ألمي أمامك في تلك المكالمةِ التلفونية التي انتهت خمسة دقائق قبل محاضرةٍ كان عليَّ إلقاؤها في مؤتمرٍ علميٍّ دوليٍّ كبير.

لم ألغِ المحاضرة. غير أني لا أدري إن كنتُ أنا الذي ألقيتُها أم جِنّيٌ يجيدُ تقليدَ صوتي تسلّلَ من أدوار غيبوبتي التّحْتِ أرضية. هل تعلمينَ سيّدتي أنها كانت أغربَ محاضرةٍ في حياتي؟

بين كلّ عبارتين من تلك المحاضرة (التي أعرف صغائر وكبائر أسرارها) كنتُ أفكّرُ فيكِ، أسترجعُ أصداءَ نبراتِك، أَدَعُها تتغلْغلُ في خلاياىَ السمعية، أحلّلُ عباراتها، أستعيد كلّ كلمات محادثتنا، أتساءل عن مصير علاقتنا...

لعلّ لحظات فراغٍ طويلةٍ إنحشرت بين كل كلماتي في تلك المحاضرة! لعلّ الكلمات خانتني تماما! لا أتذكر شيئا من كلّ ذلك! لعلّي لم أتحدّث بصوتٍ طبيعي أو أنني كنت أتحرّكُ بشكلٍ غريب، متوتّر، متشنّج، مرتجف، مصطنع...

أتذكر شيئا واحدا فقط: كنتُ أنظرُ للمستمعين بين الفينة والفينة متوقّعا ارتباكا وقرفا عارما في القاعة أمام هذه المحاضرة التي بدتْ لي مكتضّةً بالتوهِ والشذوهِ والطوسِ والحُفَرِ والفراغات...

كان العكسُ تماما! لم أر في حياتي أبدا مستمعين ينصتون بمثل ذلك التركيز المبهور، ومحاضرا يشعرُ أنه ينتزِعُ تماما وجدان مشاهِديه! كانت مع ذلك صيَغٌ رياضيّةٌ عبوسةٌ تلك التي تفوّهتُ بها، وليس بوحا غراميا كبوحِ امرأة العزيز أمام مفتوناتٍ يقطّعنَ أيديهن بشبقٍ ولا وعي لِهولِ حميميّةِ وصفِها لجمالِ يوسف ابن يعقوب.

ماذا حصل فعلا؟ هل سالتْ دمعتان فوق خدودي راقبَ انهمارهما الحاضرون؟ هل انْحرَفَتْ كلماتُ المحاضرة تدريجيا لتتحوّل إلى مسرحيّةٍ تراجيدية ترثي عشقا لا محلّ لهُ من الإعرابِ في رأيِ علومِ نَحْوِ القَدَرِ والجغرافيا؟ هل ابتعدْتُ

عن فهرس المحاضرة ونظريّاتها الرياضيّة البحتة التي كان عليّ أن أشرحها وأبرهنها، لأستبدلَها بترتيلِ قصيدةٍ صوفيّة تذيبُ الاضلاع؟ هل أفْضَيتُ لذلك الملأ المخبول تفاصيل حديثنا التلفوني الذي انتهى قبل دقائق؟ هل أنهيتُ المحاضرة بترديدِ آخر عبارةٍ قلتُها لكِ في تلك المكالمة قبل أن أسقط أسفل منبر القاعة مغميا من الغيرة والأسى والشجن القاتل: «لتكوني سعيدةً جدا في حياتك يا عزيزتي! لتمنحكِ الآلهةُ السعادةَ المطلقة، والعشقَ الذي لا يعرفُ الحدود، العشقَ الذي يشرخ الأضلاع... لكني أطلب شيئا وحيدا إن أمكن: إمنحيني خليّةً دافئةً في ضواحي قلبكِ تكون لي وحدي إلى الأبد! إمنحيني خليّةً دافئةً في ضواحي قلبِكِ تكون لي وحدي إلى الأبد! هل تُحقّقين لي هذا الطلب؟...»

آه، اللعنة، لا أذكرُ إطلاقا كيف مرّت تلك المحاضرة!

-٥-

في منتصف الليّلة التي تَلَتْ حديثَنا التلفوني، هبطتُ نحوَ مكتبي كفارسٍ مهزوم، كتبتُ هذه الفقرة:

أشهدُ أن «لا صوتَ يعلو فوق صوت النحيب» كما قالتْ كاتبةٌ كبيرة أقدّسها كثيرا. أشهدُ أن لا شعْرَ أصدقُ من شعْرٍ يبكي عشقا ضاع إلى الأبد... أشهدُ أن لا شيئَ أنقى من الشِّعْرِ الذي ينسكبُ من عينيّ هذه الليلة حارّا رقراقا يرفضُ أن يتوقّف... ما أتعسني! كنتُ متأكدا جدا قبل هذه الليلة أن الشِّعْرَ لا يكون شعْرا حقيقيا إلا عندما تتفجّرُ كلماتُه احتفالا بانتصارِ عشقٍ جديد وتخليدا لعناقِ فاتنةٍ تُفَجِّرُ القلب. لكنّي صِرتُ واثقا تماما الآن أن للشِّعْرِ دوما لونُ الدمعِ وموسيقى الانكسارات...

-٦-

سطحُ منضدةِ مكتبي مبلّلٌ ببقعٍ كبيرةٍ من الدمعِ الدافئ، بعد ساعةٍ من النحيب الجنائزي في هذا اللّيْلِ الصامت.

وصلني فاكسٌ في لحظةٍ متأخرةٍ من الليل يطلب منّي الردّ على الدعوة التي استلمتُها سابقا لحضورِ مؤتمرٍ علميٍّ في بيروت في نهاية شهر مارس. رميتُهُ على التوّ في سلّةِ مهملات المكتب، كافرا بكلّ مواعيد والتزامات هذا العالَمِ الظالمِ الذي لا يحترم أنبلَ مواعيده.

فوجئتُ بفاكسٍ آخر لم أتوقّعهُ، هُوَ، على الإطلاق، لحقَ الفاكس الأول بعد أقل من ساعة: «إنْتظرْنِي مساء ٢٧ مارس في المقهى البحري المقابل لفندق النادي البحري في بيروت الغربية!»

٢٧ مارس! عيدُ ميلادها! عيدُ ميلادي، أنا الذي لا أحفظُ إلّا تواريخ الوفيّات ولم أُعطِ يوما ما أهمّيةً لأعيادِ الميلاد. عادت إلى ذاكرتي سريعا ليلةُ لقائنا الجسدي الأولِ عندما استغربنا ضاحكَينِ مبتهجَينِ من مصادفةِ أن يكون لنا عيد ميلادٍ واحد (وإن فرّقَتْ بين أعمارنا سنين لا أتجرأُ أن أحسُبَها هنا!).

حدّثْتُها ليلة ذاك (أثناء عودتنا مُشيا على الأقدام نحو «المُعَلَّا»، وحيدَينِ، وحيدَينِ، وحيدَينْ) عن احتمالِ سفري إلى بيروت في نهايةِ مارس، وعن أشياء أخرى كثيرةً، كثيرةً، كثيرةْ، بحجمِ فضاءِ الطريقِ البحريّ بين «جولد مور» و«المُعلَّا»، عندما يمشيهِ بتأنٍ ناعم، ناسكانِ من طائفةِ عبَدَةِ «العشقِ بالهداوة»: العشقِ بايقاعٍ هادئٍ بطئ، طويلٍ جدا، متجدّدِ اللذّةِ، متواصلِ التأجُج...

أعدْتُ قراءةَ الفاكس مرّةً أخرى، مرّتين، ألف مرّة، مليون مرّة، حتّى امتلأتْ عيناي منه: «إنْتظرْنِي مساء ٢٧ مارس في المقهى البحري المقابل لفندق النادي البحري في بيروت الغربية!»

إلهي، ثمَّةَ بشرٌ يُقاومُ الموتْ،

يُقَدِّسُ آدميةَ العِشْقْ،

ويرفضُ أن نَتَخثّرَ في أديمِ العَدَمْ!

لَهُ وحدُهُ يلزمُنا أن ننحنيَ ونركع...

مارس ٢٠٠٢

حبيب عبد الرب سروري

http://abdulrab.free.fr/texts.htm

– من مواليد ١٩٥٦ بِعَدَنْ؛

– بروفيسور منذ ١٩٩٢ يقوم بتدريس علوم الكمبيوتر في قسم الهندسة الرياضيّة في المعهد القومي للعلوم التطبيقية، وجامعة روان، بفرنسا؛

– نُشِرتْ له العديد من الأبحاث والكتب العلمية، ورواية بالفرنسية: «الملكة المغدورة»، عن دار الارماتان، ترجمها إلى العربية علي محمد زيد (دار المهاجر)، ومجموعة قصصيّة: «همساتٌ حرّى من مملكةِ الموتي» (مؤسسة العفيف الثقافية). نُشِرتْ أولى قصائدِه في مجلة «الحكمة» وبعض الصحف اليمنية في ١٩٧٠.